

التقرير اليومي

2007/6/1

مختارات من الصحف ومراكز الدراسات الدولية

إيران، الولايات المتحدة ومخربو الصفقة العراقية المحتملة

بقلم ريفا بهاء الله؛ ستراتفور؛ 2007/5/30

بعد 27 عاماً من العلاقات المجمدة، أجرت الولايات المتحدة وإيران محادثاتها المباشرة والأولى على المستوى الرفيع في بغداد في 28 أيار للتفاوض حول خطة تتعلق بكيفية العمل على إستقرار العراق. وقد تبادل السفير الأميركي في العراق، ريان كروكر، ونظيره الإيراني حسن كاظمي القمي، الإتهامات حول من كان القوة الأكثر تسبباً بعدم الإستقرار في العراق. لكن، وبنهاية الإجتماع الذي دام 4 ساعات، وصف كلاهما المفاوضات بأنها خطوة أولى إيجابية لجلب الجانبين معاً للعمل على إستقرار العراق. حتى أن كاظمي القمي قال بأنه يمكن أن يكون هناك إجتماع لاحق بغضون شهر إذا ما نال الموافقة من طهران.

وقد قطعت إيران والولايات المتحدة، بشكل واضح، شوطاً طويلاً منذ ربيع 2003، عندما غدرت واشنطن بطهران بخصوص التفاهم الأساسي بين البلدين، والمتعلق بالسماح بظهور عراق يهيمن عليه الشيعة وموالٍ لإيران مقابل مساعدة إيران في التأثير على تغيير النظام في بغداد. وعندما أزلت الولايات المتحدة نظامين سنيّين معاديين عن حدود إيران- الطالبان في أفغانستان وصادم حسين في العراق- علم الإيرانيون بأنّ عليهم تعريض الشاه- ملك، أي الولايات المتحدة، للخطر على طاولة الشطرنج الإقليمية بحيث أدركت واشنطن بأنّ أية إستراتيجية خروج أميركية من العراق عليها أن تمر عبر طهران. و فقط حينها، إستنتجت طهران بأنّ بإمكانها إستخدام العراق كمنصة لإطلاق لتوسيع النفوذ الإيراني في العالم العربي.

وبسبب شعورها العميق بالخيانة، نفذت الحكومة الإيرانية تشكيلة من "المناورات الفتاكة" التي أقنعت واشنطن في النهاية بأنّ لا الإيرانيين ولا الأميركيين سوف ينجحون، بأنفسهم، في تجميع أجزاء العراق معاً. أما المفاوضات فلا تزال تشوبها حالة عدم الثقة المتبادلة. لكن بعد أربع سنوات من تكتيكات التفاوض المتفجرة، توصلت إيران والولايات المتحدة الى نقطة بحيث إعترف الجانبان بأنه ليس بإمكانهما تحمل تجنب بعضهما البعض إذا ما أرادا تجنب "أسوأ حالات السيناريو" في العراق.

وفي حين تزداد المفاوضات كثافة، كذلك تزداد الضجة حولها. فالطريق المؤدي الى محادثات 28 أيار قوطع بسلسلة من الضربات، إذ يسعى كل جانب من الجانبين للحصول على رافعة ضد الجانب الآخر. وفي حين قامت الولايات المتحدة بإرسال تسع سفن حربية مع

17000 جندي الى الخليج الفارسي (الذي دعاه الجيش الأميركي، عن دراسة وتمعن، بالخليج العربي في الصحافة الرسمية المنشورة حول تدريبات البحرية)، فقد زادت من لهجة التهديد بتوسيع العقوبات ضد طهران بخصوص الأنشطة الأخيرة النووية. أما إيران، فقد تابعت نشر أخبار عمليات تقدمها الذري وأعلنت أنها كشفت عن حلقات تجسس غربية داخل الجمهورية الإسلامية، ولا تزال الولايات المتحدة تمسك بخمسة مسؤولين إيرانيين معتقلين في مدينة أربيل، شمال العراق، في كانون الثاني كقطع مساومة في المحادثات مع إيران. وردت إيران بسلسلة إعتقالات لإيرانيين- أميركيين منتسبين لمراكز دراسات على خلفية مزاعم بأنهم منشقين يعملون للإطاحة بالنظام الديني. إن هذه "التكتيكات العدوانية" كلها جزء من اللعبة وسوف تشتعل أكثر حتى تصبح المفاوضات أكثر جدية.

جوهر المسألة

لقد أصبح الأمر الأهم الآن الوصول إلى جوهر هذه المحادثات: مصطلحات التفاوض الموضوعية من قبل كل من الولايات المتحدة وإيران حول الكيفية التي تخطط بها كل منهما لإصلاح الوضع في العراق.

فقد سلمت إيران اقتراحاً لكروكر خلال لقاء مختصر في 5-6 أيار في قمة شرم الشيخ في مصر، لكنها أيضاً إختارت إعلان عباراتها بخصوص العراق بشكل غير رسمي من خلال صحيفة الحياة- التي تملكها السعودية- في بريطانيا. أما وزير الخارجية الإيراني، فقد إختار، على الأرجح، الحياة، وهي صحيفة عربية كبرى، لنشر التنازلات التي تم تحضيرها، بواسطة قناة خلفية، وذلك لتهنئة هواجس السنة في المنطقة.

وبالمجموع، فقد دعا هذا "الإقتراح الإيراني" لإنسحاب غير معجل وإعادة تموضع الجنود الأميركيين في قواعد داخل العراق، رفض كل المحاولات لتجزئة العراق، إلزام الكتلة السنوية بإستئصال الجهاديين وإعتراف واشنطن بأن الملف النووي الإيراني لا يمكن أن لا يكون مقترناً بالمفاوضات العراقية. وبالمقابل، ستقوم إيران بكبح الميليشيات الشيعية المسلحة، مراجعة قانون إجتهات البعثيين والدستور العراقي لمضاعفة التمثيل السياسي للسنة، بناء سياسة تسمح بتوزيع عادل للعائدات النفطية (تحديداً للسنة)، وإستخدام نفوذها الإقليمي لإيجاد أزمات في مناطق مثل لبنان، سوريا، والأراضي الفلسطينية.

إنّ العبارات المقدمة من قبل الإيرانيين قريبة للغاية من الموقف الأميركي حول العراق، مع إستثناء صغير، هو أنه كانت هذه هي المصطلحات التي تناقشها بالحقيقة كل من واشنطن وطهران. عندها، فإننا نشهد تحولاً إستثنائياً في حرب العراق، بحيث تصطف المخططات الإيرانية والأميركية بالنسبة للعراق بخط واحد في النهاية. ولا يفاجئنا بعد ذلك أن كروكر قال بعد إجتماعه في بغداد بأنّ الموقف الإيراني "كان قريباً جداً من موقفنا" على مستوى السياسة والمبدأ.

المخربون

إنّ إمكانية تحمس واشنطن وطهران لبعضهما البعض، وإمكانية إستعادة الولايات المتحدة لنطاقها العسكري في المستقبل غير البعيد جداً، هو كافٍ لوضع عدد من الممثلين الخطيرين في حالة إحتياج وجنون. وبإستثناء الجهاديين، فإنّ معظم الممثلين موضع التساؤل يرون حدوث توافق إيراني- أميركي بشأن العراق أمراً حتمياً، وبأنّ ليس لديهم خيارات كثيرة سوى الإجتهد في تشكيل ما سيكون، من نواح أخرى، واقعاً مفروضاً في الأشهر المقبلة- بترك مجال حقيقي للخطأ في هذه المفاوضات. إنّ العراقيين السنة والدول العربية، بالتحديد، لن يخربوا المحادثات، بالضرورة، لكنهم سيعملون لتأمين مصالح السنة وإحتواء المدى الذي ستظهر من خلاله إيران كمستفيد رئيس من أي إتفاق ناجح مع الولايات المتحدة حول العراق.

• البهاديون

إن الجهاديين المتعددين الجنسيات، داخل العراق، هم أكثر الناس عرضة للهواجس الكبرى. فحصول تسوية سياسية في بغداد في النهاية سيشمل مجهوداً مدبراً من قِبَل شيعة العراق والسنة العاديين لإستئصال الجهاديين وحرمانهم من الظروف الأمنية الفوضوية الضرورية لعملياتهم. إذ إن رأس قيادة القاعدة المختبئة على طول الحدود الباكستانية- الأفغانية ترهن أيضاً على الفوضى المستمرة في العراق للمحافظة على حركة الجهاديين المتعددين الجنسيات حية، وهي لن تكون مسرورة بمشاهدة تعزز القوات الأميركية على مسرح آسيا الجنوبية ما إن يُختتم الإتفاق في العراق. فالعنف الهادف الى رفع التوترات الطائفية لوقف المفاوضات- تحديداً الهجمات التي تستهدف إثارة الشيعة- سوف تتصاعد بشكل حقيقي على مدى الأسابيع والأشهر المقبلة في العراق. كما من المرجح أن يتم إستهداف الأهداف السياسية ذات القيمة العالية وإغتيالها، وذلك بمجهود يهدف إلى تمزيق البنية التحتية القيادية للفئات ذات الصلة بالموضوع.

• العراقيون الشيعة

يواجه الإيرانيون مهمة مخيفة تكمن في جعل كتلة العراق الشيعية في شكل معين مواصلة العمل مع طهران في إلزامها إخماد الهجمات الطائفية بالقوة وتوحيد القوى السياسية الشيعية في العراق للمرة الأولى في تاريخ البلاد. فـ "الإنشقاق الداخلي" متأصل أصلاً في بنية المجتمع الشيعي العراقي، حيث أنّ المواليين لهذا المجتمع موزعون بين المجموعات السياسية الثلاث الكبرى- المجلس الأعلى الإسلامي العراقي (وهو الاسم الجديد للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق)، حزب الدعوة وحزب الفضيلة. فالتنافس الشيعي المتبادل داخل وبين هذه المجموعات كافٍ للتسبب لأي شخص بالصداع. إلا أنّ إيران واعية جداً الى أنّ العنف و التوصل لإتفاق جيد حول أموال العائدات النفطية سيكونان أمران ضروريان لوضع العراقيين الشيعة ضمن الخط وجعل المفاوضات تنجح. وبالرغم أنّ المجموعات السياسية الرئيسية مرتاحة بشكل أكبر لفكرة العمل مع إيران، فإنّ على إيران أيضاً أن تلعب أوراقها بحذر لضمان أن لا تتسبب بإشعال الشعور العربي القومي بين الممثلين الشيعة، الذين لديهم شكوك عميقة بنوايا إيران، والذين يملكون السلاح وإمكانية الوصول الى حقول النفط الجنوبية للعراق لإستخدامها كأدوات لتحريك وإثارة المشاكل.

• العراقيون السنة

ورغم أنّهم ليسوا منقسمين كالعراقيين الشيعة، فإنّ المشهد السني في العراق يعاني هو الآخر من إنقسامات كثيرة خاصة به كافية لجعل هذه المفاوضات معضلة. فالفئات السنية الموجودة على المسرح تشمل:

- الكتل السياسية الموجودة، مقسّمة بين جبهة التوافق العراقي الإسلامي وجبهة الحوار الوطني العراقي العلماني.
- الجماعات العشائرية، كمجلس إنقاذ الأنبار، الذي يقاوم الجهاديين الأجانب للحصول على مقعد على طاولة المفاوضات.
- المؤسسة الدينية السنية، بقيادة رابطة العلماء المسلمين العراقيين المتشددة التي لديها علاقات وثيقة مع جماعات التمرد، والتي أصبحت أكثر فأكثر، معادية لإيران في الأسابيع الأخيرة.
- المتمرّدون القوميون السنة، الذين يبحثون عن ثغرة مقبولة في العملية السياسية، لكنهم لا يزالون لا يتفقون بالنوايا الشيعية.

ويعرف العراقيون السنة كيف يقومون بمساومة صعبة في هذه المحادثات لضمان أن يكون السنة مندمجين جيداً في أجهزة الدولة السياسية والأمنية للتغلب على الأكثرية الشيعية. وسوف يستمرون بالإعتماد على المتفجرات خلال المحادثات كوسيلة للتأكد بأنّ مطالبهم مسموعة. إنّ الفئات المتنافسة داخل الكتلة السنية والمقاومة المتشكلة من حلفاء هذه الكتلة من الجهاديين السابقين، لن تؤدي سوى الى تعقيد هذه

المفاوضات. لكن، وعلى خلاف الجهاديين، فإن هذه الجماعات السنية غير معارضة، من حيث المبدأ، لصفقة تشمل الإيرانيين - إنهم يريدون المفاوضات في الواقع.

• العراقيون الأكراد

وبسبب ما يبدو ظاهراً من الاقتراح الإيراني، فإن للأكراد دواعي قلق "كثيرة" بشأنه. فتوسيع التمثيل السني وتغيير الدستور للسماح بتوزيع أكثر "عدالة" للعائدات النفطية يترك الكتلة الكردية في سيناريو مألوف جداً تقوم فيه الولايات المتحدة بالتضحية بالمصالح الكردية لحماية مصالح الدول المجاورة للعراق.

وعند هذا الحد، إستخدم الأكراد إرباك سفك الدماء السني - الشيعي في الجنوب لتوحيد قوة الكتلتين الكرديتين الرئيسيتين المتنافستين (وهو حدث نادر للغاية)، والدفع قدماً بمطالب الحكم الذاتي الكردية لفتح حقول نفط العراق الشمالية أمام الشركات الأجنبية. إذ ما إن تتوصل الكتلتان الشيعية والسنية العراقيتان إلى مستوى ما من التفاهم السياسي في بغداد، فإن إهتمامهما سرعان ما سيتحول إلى خصهما المشترك في الشمال، تاركين الأكراد يواجهون تحركات مألوفة للحكومة العراقية بقمع الإستقلال الكردي. فالأكراد سيكونوا بحاجة لقيادة مساومة صعبة عن طريق الدفع بإتجاه الإستفتاء حول كركوك بحلول نهاية العام ومقاومة التغييرات الجذرية للدستور وتعليق التشريع القانوني بخصوص الهايدر وكاربون، الذي يهدد بوضع حقول العراق النفطية غير المطورة في الشمال تحت سيطرة الدولة. أما التهديدات الأكبر التي يمكن أن يشكلها الأكراد لإتفاق إيراني - أميركي حول العراق، فقد يشمل سحب الدعم الكردي للقوات الأميركية أو التهديد بالانسحاب من الحكومة. لكن في النهاية، تبدو التسوية حتمية لأن الأكراد ليس لديهم مكان آخر يتحولون إليه.

• المتطرفون في واشنطن وطهران

هناك فئات متطرفة في كل من واشنطن وطهران من غير المتحمسين، تقريباً، بما يتعلق بالتقارب الأميركي - الإيراني، وبإمكان هذه الفئات استخدام نفوذها لتعقيد المفاوضات. وهناك إشاعة بأن في إيران "خلافات كبرى" بين الرئيس وآخرين من كبار المسؤولين الإيرانيين، تحديداً حول مسائل السياسة الخارجية. كما أن هناك مؤشرات متزايدة بأن رأس المؤسسة الدينية يقوم بتحركات لتحييد الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد، وإضعاف نفوذ فئته المتطرفة كإجراء وقائي لضمان التقدم في هذه الأحداث. وبرغم أن القائد الأعلى الإيراني آية الله خامنئي كان قد تولى تدبير الإنقسامات العميقة داخل المؤسسة الإيرانية بين الفئات المتطرفة والفئات المحافظة البراغمية، فإن قدرته على إحتواء على هذه الإنقسامات رهينة صحته المتردية.

وفي هذه الأثناء، فإن العناصر المتشددة في واشنطن تقوم، وبفعالية، بنشر معلومات عن حملة سرية مزعومة موقعة من قِبَل الرئيس جورج دبليو بوش، للإطاحة بالنظام الديني. فهؤلاء الممثلين هم أكثر إهتماماً بالتأثير بسياسة تغيير النظام منه بالتقارب مع طهران، وهم يعتبرون أن المفاوضات ليست أكثر من سحابة دخانية لحملة سرية لتخليص الجمهورية الإسلامية من آيات الله الذين يحكمونها. وتهدد هذه الإشاعات بتغذية حالة عدم الثقة بشكل أكبر بين الجانبين، في الوقت الذي لا تزال فيه المفاوضات تتأرجح بالكامل، خصوصاً مع خوف إيران الأكبر بأن تنتهي مغدوراً بما بالكامل، مرة أخرى، ما إن تسترد واشنطن قواها بعد العراق ويصبح لديها إمتداد كافٍ لتأمل بخياراتها العسكرية.

• القوى الإقليمية السنية

إنّ العربية السعودية والخليج العربي قلقون بشكل غير عادي من فكرة مواصلة الولايات المتحدة وإيران القيام بإجتماعات حصرية بينهما حول مسألة تتعلق مباشرة بمصالحهم الأمنية الوطنية. وبصفتها زعيمة السنة العرب، تعتقد السعودية بأنّ لديها كل الحق بأن تكون جزءاً من عملية التفاوض الرسمية، لكنها ترى أيضاً حتمية عمل الولايات المتحدة وإيران معاً نحو تسوية عراقية. وعلى الأغلب، ستقوم الحكومة السعودية، وذلك طبيعي، بالصياح إحتجاجاً خلال هذه الإجتماعات الأميركية- الإيرانية الثنائية، لكنها بدلاً من ذلك باقية على هدونها. وحتى الآن، فإنّ على السعوديين الإعتماد على الولايات المتحدة لضمان مطالبهم بخصوص التمثيل السني والإصغاء الى مسألة الإحتواء الإيراني.

وفي هذه الأثناء، يعمل الإيرانيون بشكل واضح للتخفيف من "مخاوف العرب السنة" عن طريق الإعلان عن العرض الإيراني حول العراق (مع تنازلات هامة للسنة في العراق) في صحافة عربية معروفة وزيادة الحوار الدبلوماسي مع الدول السنية المجاورة لإيران في الخليج. لكن كلما تحدث الإيرانيون عن تسليح وتدريب الجيش العراقي، كلما قلق السعوديون أكثر.

قال سعود لا يريدون مشاهدة سيناريو يجري بطريقة بحيث يقوم الجيش الأميركي بالانسحاب من العراق، في حين تستخدم إيران بدائلها المسلحين هناك لخلق عذر ما للتدخل عسكرياً واضعة الجيش الإيراني على مرأى من نطق العربية السعودية- والحفاظة الشرقية الغنية بالنفط. كما أنّ السعوديين لا يتطلعون قدماً الى يوم يعود فيه المتطوعون الجهاديون السعوديون المتصلبون من جراء الحرب في العراق، الى الوطن وشن هجمات في المملكة. وبالرغم أنّ السعوديين قد يعتبرون بأنّ إتفاقاً أميركياً- إيرانياً ما هو إلا أمر ضمني، فإنهم سيحافظون على علاقاتهم الكاملة مع المسلحين السنة لإستخدامها كمخرب رئيسي للإتفاق إذا ما فشلت التسوية العراقية بالإلتفات الى مصالحهم.

• سوريا

ربما يكون الرئيس السوري باشر الأسد يستلقي مستيقظاً في الليل مفكراً بهذه المحادثات الأميركية- الإيرانية. فالنظام البعثي- العلوي في سوريا أحب فكرة قيام حلفاؤه في طهران بتوسيع النفوذ الشيعي في حين تبقى الولايات المتحدة، التي تحتل العراق عسكرياً، بعيدة جداً عن إزعاج سوريا. فالتمرد في العراق وفر، أيضاً، لسوريا صمام ضغط مفتوح وحيوي بالنسبة للمسلحين السنة في البلاد. وكالرياض، لا يريد نظام دمشق رؤية الجهاديين يعودون إلى سوريا من العراق وتنفيذ هجمات على أرض الوطن.

وبالرغم من هذه الهواجس، فإنّ السوريين يأملون بأنّ تحالفهم مع طهران سوف يكون منتجاً وينتهي بإعتراف جدي وبضمانات أمنية من قبل الولايات المتحدة. ولكي يحدث هذا، فإنّ على سوريا أن تثبت أنّها "جزء مكمل" لهذا الإتفاق العراقي عن طريق إظهار إمتلاكها القدرة على كبح حركة التمرد والسيطرة عليها (عن طريق "صب الجهاديين" داخل لبنان حتى الآن). وفي حين تقدم سوريا تعاوناً محدوداً حول العراق لإظهار قوتها، فإنّ نظام الأسد سيصبح أكثر "جرأة" لجهة تأمين مصالحه في لبنان، حيث أولويات سوريا متأصلة هناك.

• روسيا

إلا أنّ اللاعب الذي قد يخسر أكثر من غيره فهو غير موجود حتى في الشرق الأوسط. وهذا اللاعب هو روسيا. فللوهلة الأولى، تعتبر روسيا لاعباً شاذاً في الوضع العراقي المعقد، إذ ليس لديها جنود هناك، وبصرف النظر عما يحصل للعراق في المدى القصير، فليس لبغداد أي تأثير على أي شيء روسي. وقد كانت موسكو، بالتأكيد، صديقة للحكومة السابقة، لكن ليس الى درجة أن يؤدي سقوط صدام حسين الى تأثير قوي على المصالح السياسية أو الاقتصادية الروسية. على أنّ لروسيا، على كل حال، فرسي رهان في هذا السباق.

الأول يتصل بالبرنامج النووي الإيراني، والتي تشكل محطة الطاقة في بوشهر التي يبنها الروس جوهرة التاج بالنسبة له. وبرغم التظاهر الإيراني بالعكس، فإن برنامج إيران النووي هو، وإلى حد كبير، نتيجة تقاسم المعلومات التكنولوجية الروسية. وإذا ما تخلى الروس عن البرنامج الإيراني، فإنه سيعاني من تراجع بارز ومذهل. وبشكل مشابه، وطالما أن روسيا لم تنه بناء المفاعل في بوشهر، فإن الغرب لا يمكنه تجاهل قدرة موسكو على الأداء كمحاور في طهران. وطالما أن الموقع لا يزال "قيد الإنشاء"، فإن لروسيا رافعة على كلا الفريقين. وما إن ينتهي التقنيون الروس من المفاعل حتى تتبخر تلك الرافعة.

ثانياً، والأهم بكثي هو: طالما أن الجزء الكبير من الاهتمام السياسي والعسكري للولايات المتحدة وإيران يمتصه الوضع في العراق، فلن يكون لكلاهما قدرة الإمتداد على التعامل مع قضايا أخرى. فإيران لديها مصالح عميقة وقديمة في أذربيجان وتركمانستان - دول ذات مصلحة شديدة الأهمية بالنسبة لموسكو - إلا أن إنشغال إيران بالعراق منع طهران من استثمار خيارات أخرى مؤخرًا. وبشكل مشابه، فإن الولايات المتحدة لم تواجه خصماً أكثر تحدياً من الإتحاد السوفييتي من خليفته الدولة الروسية. وبهذا الصدد، فليس هناك من بلد أكثر رغبة بتحدي جهود روسيا المستمرة لإعادة تركيب شبكة ترتيبات أمنية أوروبية لصالحها أكثر من الولايات المتحدة. إلا أن ذلك يتطلب من واشنطن عدم إستهلاك نفسها بالعراق الذي أصبح الثقب الأسود (يبتلع كل شيء).

الطريق المؤخر المقبل

لقد إستلزم الأمر 4 سنوات من تكتيكات التفاوض الشديدة الوطأة قبل إخراج الإتفاقيات الأميركية - الإيرانية حول العراق من القنوات الخلفية إلى الملأ العام.

لقد كانت تلك نصف المعركة.

إن إصطفاف الإقتراحات الأميركية والإيرانية بخصوص العراق بخط واحد يعتبر علامة مميزة لمرحلة إنعطاف هامة في الحرب. لكن لا يزال السؤال المطروح هو عما إذا كان بإمكان اللاعبين الثلاثة المتفاوضون حول هذا الإتفاق - واشنطن، طهران، والرياض - الوثوق ببعضهم البعض بشكل كافٍ والتحكم بشكل كافٍ بممثلي الدولة العراقية لحملهم على التعاون لينتج ذلك نتائج "فعلية على الأرض". إلا أن إدخال عامل المخربين في هذه المعادلة، إلى جانب عدواة عربية - فارسية عمرها قرون يكون محوره إحتواء إيران الصاعدة جداً والمشاركة في هذا الإتفاق، وما سينتجه، عندها فإن ما يمكن أن يثمر عن إمكانية التوافق الأميركي - الإيراني لا يبدو جيداً للغاية. إن آملنا ليست محطمة بالكامل، لكننا نرى طريقاً وعرّاً أمامنا.

